# أثر الانزياح الدلالي في مقصدية النصّ

د. الجيلالي حلام
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس

**الملخص:** إن هذه الدراسة محاولة للوقوف على مقصدية أي خطاب أدبي ، انما تستند عي استحضار مكونات النص كاملة ، فلا يمكن الوصول اليها دون قراءة المستويات الدلالية للكلمة ؛ مفرداتية وسياقية وهامشية تأويلية ؛ اذ كل محصلة قرائية هي نتيجة مركبة من تكامل الأنواع الدلالية السابقة ، وكذ العلاقات والمبررات التي تقدمها كل دلالة ؛ حيث يتم الحصول على المعاني التعريفية الكامنة في مستوى المفردات ، و المعاني السياقية المتصلة بمعاني الجمل ، والمعاني الاشارية و التأويلية المرتبطة بمستوى الدلالات الهامشية

وتبعا لكل ذلك يمكن استنطاق النص ، ومراوغة العلاقات التي تجمع بين هذه الأنواع من الدلالات ؛ فيبوح كل مستوى بجانب من مقصدية النص ، ومن العلاقات التي تربط هذه المستويات ، وما يضفيه ويضيفه المتلقي من تناص وظلال على قراءته الفنية المفتوحة ، سواء على مستوى الأفق أو السطح ، أم على مستو ي البنية التأويلية العميقة ، كما هو مبين في المخطط التالي/

قراءة النص دلالة مفرداتية — دلالة سياقية — دلالة هامشية

قراءةبنويةحرفية — قراءة تفسيرية — قراءة تأويلية

بنية سطحية — بنية عميقة

مقصدية النص المقروء

( النص المبتدع نقديا )

وتوضّح الرسمة أن مسافة تلقي النص تتقاسمها أحيـــاز متداخلـــة ؛حيز تقبل المتلقى ؛ أي النص كاخبار ، وجيز جمالية هذا النص ، وحيز أفق التوقعات التي يستشف الدارس ملابساتها ،أولا على مستوى البنية السطية التي يقدمها التحليل الدلالي للمفردات والسياقات والعلاقات التي تربطها ؛ وثانيا على مستوى البنية العميقة التي تستشف دلالاتها من تأويل الملابسات الهامشية لبنية النص ، وهذا يؤكد ما للانزياحات والتغيرات الدلالية من أثر في بنية النص الأدبي على جميع مستوياته .

ان حمولة الكلمات تتأتي من عدة عوامل خارجية ؛ كثقافة الكاتب وحالته النفسية والاجتماعية التي تتداعى الى الذهن نتيجة ارتباط الكلمة بأشياء ومواقف ومأثورات سابقة وآنية ولاحقة ، وتندرج ضمنها العوامل اللغوية والأسلوبية التي تزيح الدلالات عن مقاصدها وتسعى بها الى النقل المجازي أو التوسيع أو التضييق (1) .

**الكلمة والاستعمال :**

ان هيئة الكلمات في متن النص الحيّ ، وبخاصة في الابداعات الأدبية الرفيعة ، ليست هي نفسها هيئة المفردات على أعمدة المعجم ؛ فالكلمة السياق تتوفرعلى مجموع الملابسات الدلالية التي تتشكل من الروابط والعلاقات وتتشابك فيها الحقول المختلفة ؛ افرادية وسياقية وهامشية ونصية ، مما يجعل الوحدة المفرداتية عرضة للاستعمال المجازي والانتقالي الانزياحي ، وهو خروج عن النمط السائد ؛ لأنه يدخل ضمن معطيات ومؤثرات معينة ، تأخذ في الحسبان نظرة المستعمل كامتكلم والكاتب أو الشاعر أو الروائي ، وتظهر هذه الآثار الدلالية واضحة في جلّ الأعمال الابداعية الأدبيـــة بخاصـــة ، ولاشـــك في أن المتتبع للآثار الأدبية يمكنه أن يقف على هذا الخروج ، و هو خروج يندرج ضمن أهداف مقصودة وغير مقصودة ، فيزيح عن قصد لاثارة السامع أو المتلقي وبث عنصر الادهاش والاثارة الفنية ، أوما يعرف التنمية الادراكية اللغة (2). وقد يكو ن الخروج عن الدلالة الأصلية من غير قصد ، وانما يسعى الكاتب اليها من أجل توضيح الفكرة أو الصورة وتقريبها ، كما يحدث مع الاستعارة والمجاز المرسل عند القصد الى غاية فنية أو ابلاغية .

ويظهر الفرق بين هيئة الكلمات في المعجم وهيئتها في الاستعمال أو النظم من عدة جوانب أهمها/

1- أن الكلمات في المعجم ساكنة ، وذات دلالة مركزية بالدرجة الأولى ، بالاضافة الى بعض الدلالات الترادفية والتقاربية والحقلية ؛ هي في الغالب الدلالات الأكثر شهرة ،

2- أن السياقات التي يستثمرها المعجم محدودة ؛ لأن المعجم غير قادر على تجميع كل الدلالات السياقية المحتملة .

3- أن الدلالات المعجمية ليس لها مقام معين ، وهي دلالات حرفية لا تحتمل التأويل أو الانزياح والظلال ، وعلى العكس من ذلك فان الدلالات المنتظمة في النص الابداعي ذات شحنات دلالية متباية ، سواء من حيث السياق الاستعمالي أم من حيث الايحاءات والظلال التي يمدّها بها الجوّ العام للنص ، بما في ذلك المقام وتوالي العهود والقراءات على النص المبتدع .

4- ان الاستعمال كثيرا ما يجدد الكلمات أو يليها ، فتأخذ معاني جديدة متطورة ، قد تفقدها دلالتها المعجمية ، مما يجعل الدلالة المقصودة في النص ، غيرها في المعجم ، حتى وان كان المعجم مواكبا للتطور اللغوي .

ومن أمثلة تحديد الاستعمال للكلمات ؛ ذلك الزخم من الدلالات المتراحة في النص القرآني بالمقارنة من دلالاتها في الشعر العربي القديم ، وفي العربية المعاصرة

( عربية التعليم والبحث والصحافةوالاذاعةوالرواية والوثائق الرسمية في يوم الناس هذا ) بالمقارنة مع عربية العصر العباسي مثلا . ففي العربية المعاصرة ، نطلق مصطلح

( الصكّ ) على وثيقة صرف النقود ، و(الخرطوم) على أنبوب الماء ، و( الجريدة ) على الصحيفة اليومية ، بينما معاني هذه الألفاظ الحضارية ، كانت تدلّ قبل هذا الزمان على مفاهيم مغايرة تماما وهي على التوالي ( الكتاب - أنف الفيل وغيره - فرع أوسعف النخلة ) (3).

وهذا ما يجعل الدلالات غالبا ما تنمو خارج المعجم ؛ أي ضمن اللغة المتكلمة والنصوص الابداعية والحوارات الشفوية والكتابية عامة .

ونتيجة لهذه المعطيات ، فان التحليل النقدي للنصوص أكثر ما يرتبط بالجو العام للخطاب ، و يحاول أن يفسره ضمن الحيز الجمالي ، فتظهر الانزياحات عن طريق العموم والخصوص ، و النقل والعدول عن الحقيقة أو عن الدلالة المركزية ، وهي ظواهر يضفيها الأثر الأدبي في نظمه الفني ، على الكلمات .

ولعل أسباب الاختلافات التأويلية بين النقاد والدارسين في تحليل الاعمال الأدبية ، مرجعها بالدرجة الأولى الى اهمالهم لهذا الجانب من العلاقات والوشائج التي تربط شبكة النظم بين الدلالات المعجمية والدلالات النصوصية . ففي أي نص ، هناك معان محتملة وأخرى حرفية ، ويتفاوت الدارسون في هذا الجانب تفاوتا كبيرا ؛ فالنظرة الى النص المعاصر بعين ( معجم الصحاح ) نظرة لا تتوافق مع الناقد المعاصر ، وهو يغوص في نصوص حداثية يحوكها الواقع المعبش .

ومن هنا نجد للتغيرات الدلالية آثارا حاسمة في تعتيم مقصدية النصوص الأدبية ، بما تحتويه من تضمينات مقبولة وأخرى مرفوضة . ومع ذلك فان ( الأدب يعمل الى حدّ كبير عن طريق السيطرة على تلك التضمينات ، وبالطبع فان السياق هو الذي يسيطر عليها مما يسمح لبعضها ، ويبعد بعضها الآخر ، باعتبارها غير واردة ؛ لأن

القصد الذي يتصوره عن عمد لا يسمح الا لبعض التضمينات فقط ، وان كان يعرف بمعنى من المعاني بوجود تضمينات أخرى (4) .

ويبدو أن التفاوت بين الدارسين للأثر الأدبي يظل موجودا بالضرورة ، ويتعمق كلما نشط اللسان المتكلم وازدهر الابداع الأدبي ، وهي ظاهرة فنية تتعاورها الدلالتان المركزية والسياقية وحتى الهامشية في حالات خاصة ، مما لا تستغني عنه أية لغة من اللغات الانسانية .

ومن الملاحظ أن هذه الانزياحات والتغيرات الدلالية لا تقتصر على مجموعة من الكلمات ، بل تتعدي ذلك لتصبح ظاهرة لغوية عامة (5)، ومن النادر أن نقف على كلمة تستقل بمعناها المعجمي الواحد ، باستثناء ما دخل منها مجال الاصطلاح العلمي والتكنولوجي ، وهي ظاهرة حياة وتحول في مقابل الركود والثبات ؛ اذ ليس هناك خوف على الوظائف الابلاغية والتواصلية للسان ؛ لأن اللسان عامل حاسم في رفع اللبس وازالة الغموض الذي قد تبرزه التغيرات الدلالية ، وما له من آثار مباشرة في البنية الدلالية للخطاب الأدبي ؛ مادامت اللغة في جوهرها تحايد مرة و تخادع أخرى ، وتبين تارة وتخفي طورا ؛ لتبدع من كل ذلك عالما جديدا.

**انزياح الدلالة ومقصدية النص :**

سبقـــت الاشارة الى الاستعمـــال ، وما له من أثر واضح في ازاحة دلالة المفردات . ويهمنا في هذا الصدد أن ندلّل على هذا المستوى المفرداتي ، وكيف يمكن أن يخترق اللفظ الواحد قوانين اللغة ، ويؤدي الى تغيير وتحوير مقصدية النص ، عند قراءته ، أوأثناء تحليله، و محاولة فهمه واستنطاق سياقاته من لدن النقاد أو الجماعة اللغوية .

من الثابت أن قضية دلالة اللفظ ، قد شغلت حيزا شاسعا من دراسات الباحثين والنقاد منذ القدم ، بل البدايات التأسيسية للنقد الأدبي ، تكون قد انطلقت من هذه القضية ، وكانت اللبنة الأولى والعينة المدروسة هي ( المفردة ) ، ومنها وصل الى السياق ثم الى النص ، فكان للكلمة المفردة أثرها البارز في مفهوم النص ، قبل أن يصل الى دلالةالجملة ، ثم الى دلالة الخطاب ، وما يضفيه النظم على مقصدية النص .

وتظهر لنا جلّ الدرسات النقدية القديمة ، التركيز الزائد على دلالة (الكلمةالمفردة) من الوجهة المعجمية والبلاغيـــة ؛ ولذلك أحاطوها بسياج من المعطيات والأحكام ، باعتبارها مجموعة من العناصر الصوتية تشغل حيزا أو مساحة دلالية صغرى في المجتمع اللغوي ، فاذا تجاوزت الدلالة المقصودة ، خرجت عن القصد ، وبالتالي اعتبرت شاذة أو خاطئة ، وأن الناصّ قد أخطأ في معناها ، مما جعلها تؤدي الى اللبس والتعتيم واضعاف عملية التواصل والتفاهم التي هي أساس اللسان بين المرسل والمتلقي .

وتوضيحـــا لبعض هذه الآثار الدلاليـــة ، نقدم فيما يلي نماذج مستقاة من نصوص الأدب العربي القديم ، تبرز أثرالانزياح والتغير الدلالي القصدي أو الخاطئ للكلمات /

ا- من بوادر النقد الدلالي في العصر الجاهلي ، ما يرويه صاحب كتاب الموشح (6) ، من أن المسيب بن علس مرّ بمجلس بني قيس بن ثعلبة ، فأنشدوه ، وأنشدهم قوله/

**ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم  نحيّيك عن شحط وان لم تكلّم**

فلما بلغ قوله /

**وقد أتناسى الهمّ عنـــد ادّكاره  بنـــاج عليه الصيعرية مكدم**

**كميت كناز لحمـــها ، حميرية  مواشكة ترمي الحصى بمثلم**

**كأن على أنساقها عدق خصمه  تدلّى من الكـــافور غير مكمم**

فقال طرفة ، وهو لا يزال صبيا يلعب من الصبيان /( استنوق الجمل ) ، فقال المسيب / ياغلام ؛ اذهب الى أمك بمؤدبة ؛ أي داهية .

فقال طرفة / لو عاينت أمك خاليا لهاك ، فقال المسيب / من أنت ؟ فقال / طرفة بن العبد ؛ قال / ما أشبه الليلة بالبارحة ! يريد ما أشبه بعضكم في الشعر ببعض .

ان هذه الرواية توقفنا على أن المسيب قد استعمل كلمة بدلالة غير دلالتها الاجتماعية ؛ فوصف الجمل بصفة من صفات الناقة ، وهي سمة في عنق الناقة ( عليه الصيعرية).

ويتضح لنا من قراءة النص ، ضمن تعابيره الراقية ولغته الفصيحه ونظمه المحكم ، أن كلمة ( صيعرية) قد أحدثت في مقصديته العامة انقلابا فنيا فانتقل من الرقي الى الانحطاط ، ومن الادهاش الى الاضحاك ، فقد يكون المسيب قد سلك هذا المنحى من باب التوسع في دلالة ( الصيعرية ) ، لتكون وصفا للبعير والناقة معا ، أو ربما من باب الجهل أو الخطأ ، في حين أن الجماعة اللغوية قد حرصت على اعتماد المعيار الدلالي الذي يثبت تلك الصفة للناقة فحسب ، ولا يضع الدلالات سوى في نصابها المحدد .

ب – ان تطـــور الأحكـــام التذوقيـــة الذاتية الى مقاييس نقدية ، يكون قد بدأ مع بداية العصر الأموي ، في ظل مجالس النقد التي كانت تعقد أنذاك ، فكانت علوم اللغة أول أداة اجرائية، في النقد الأدبي أنذاك .

ومن أمثلة هذا التوجه نحو النقد الدلالي ، ما يظهر من تعليق ابن عمرو على البيت الشعري المشهور للنابغة الذبياني (7)/

**مقلوفة بدخيس النحض بازلها  له صريف العقو بالمسد**

قال له أبو عمرو / ما أضرّ عليه في ناقته ماوصفا ، فقال له وكيف ؟ قال لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الاناث من الاعيـــــاء والضجر ، كذلك تكلمـــت العرب . فرآه بسكوته مستزيدا ، فقال / ألم تسمع قول ربيعة بن مقروم الضبّي /

**كناز البضيع جمـــالية  اذا ما يغمن تراها كتوما**

فهذه الاشارات النقدية تندرج كلها ضمن الدلالة المفرداتية وأثرهافي بنية مقصدية النص .

ومن امثلتها أيضا ، قضية التداخل بين متقاربات الحقل المفرداتي ، على غرار استعمال البحتري لكلمة (الحواشي) في قوله /

**بـــدت صفرة في لونه ان حمدهم  من الدرّ ماصفرت حواشيه في العقد**

فذهب أبو هلال الى أن استعمال ( الحواشي ) في الدرّ خطأ ، ولو قال نواحيه ، لكان أجود والحاشية للبرد والثوب ، فأما حاشية الدرّ غير معروف (8) ؛ فالعسكري في هذا التحديد ينطلق منطلقا معياريا ، لا يسمح معه للكلمة بالانزياح أو التغير الدي هو ظاهرة طبيعة في اللسان الحي المتكلم ، ومن هنا ربط المفردة بالاتها المركزية المتصلة بالثوب دون غيره . وقد ساد هذا التوجه الدراسات النقدية القديمة ، فتناولت قضايا الايصال من حيث علاقة الدال بالمدلول مستندة الى حقيقة معيارية ؛ هي أن لكل لفظ معنىمعين ، وأن هناك محيطا دلاليا تعارفت علية الجماعة اللغوية لايمكن تجاوزه ، وهذا التوجه سرعان ما تعارض مع النظرة الوصفية للغة ، مما حدا ببعض الدارسين الى استثمار أدوات اجرائية جديدة في تحديد أنواع الدلالات ، وايجاد مناهج متنوعه للتحليل الدلالي ، فالتجأوا الى السياق ونظرية النظم ونظرية التعريف و الأشباه والنظائر والفروق اللغوية . يقول الأمدي في التفريق بين دلالتي ( الفراق) و( النوى) في قول أبي تمام /

**وفي الكلّة الصفراء جؤذر رملة  غدا مستقلا ، والفراق معادله**

ان تركيب ( والفراق معادله ) معنى غير جيّد ؛ لأن الفراق يدل على مفارقة كل واحد من الاثنين صاحبه ، فاذا جعل الشاعر في بيته الفراق ماضيا مع أحدهما ، و أخلى الآخر منه كان الآخر غير مفارق ، وهذا محال (9) ، ويرى أنه لو استهمل ( النوى) لما وقع في هذا الخطأ الدلالي ؛ لأت النوى هونية القوم المفارقين ، دون غيرهم من المقيمين (10)، فالآمدي في تحليله هذا قد اعتمد نظرية السياق اللغوي ، والحقل المفرداتي في تحليل الدلالتين ، مما يشير الى توجهات جديدة واستثمار وسائل مختلفة وتظريات متعددة ، ومناهج متباينة في تحديد المعنى المفرداتي والسياقي للكلمة .

ونستنتج مما سبق أن ضبط الدلالة المفرداتية في خضمّ النص الأدبي ، لايمكن أن يتم في غياب دلالة السياق ، ودلالة الهامش ، ودلالة النص عامة ، وأن الانزياحات والتغيرات الدلالية من طبيعة اللسان الحي المواكب للتطورات

الحضارية المصاحبة لمسار الجماعة اللغوية، ولاشك في أن هذه النظرة الوصفية للغة تستوجب استثمار أهم التظريات اللسانياتية القديمة والمستحدثة ، لما لها من علاقة وطيدة بالدرس النقدي ، وبخاصة في مجال التحليل الدلالي للكلمات في النص الابداعي ، باعتبارها الوحدات الأساسية المشكّلة لبنية النص ، دون اغفال المستويات الأخرى من صوتية وتركيبية.

1LEDENT R / COMPRENDRE LA SEMANTIQUE / belgique verviers 1974 ;

2- ÛíÑæ ¡ ÈííÑ ¡ Úáã ÇáÏáÇáÉ ¡ Ê/ ãäÐÑ ÚíÇÔ ¡ ÏÇÑ ØáÇÓ áäÏÑÇÓÇÊ æÇáÊÑÌãÉ æÇáäÔÑ ¡ 1988 ¡ ÏãÔÞ ¡ Ô 100.

3- انظر / المعجم الوسيط ، ( صك - خرطوم - جريدة ) .

4- غراهام ، هو / مقالة في النقد ، ت/ محيي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الأدب ، دمشق 1973 ، ص 89 .

5- انظر / أحمد محمد ، مبادئ اللسانيات ، دار الفكر المعاصر ، بيروت 1996 ، ص 314 .

6- المرزباني ، أبو عبد الله ، الموشح . ت/ علي البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة 1965 ، ص76.

7- بدوي طبانة ، دراسات في نقد الأدب العربي ، دار الثقافة ، بيروت 1974 ، ص 118 .

8- العسكري ، أبو هلال ، كتاب الصناعتين / الكتابة والشعر .ت/ علب البجاوي وآخرون ، مطبعة البابي الحلبي ، دمشق 1971 ، ص 132.

9 - م . س .

10- المرزباتي ، م .س . 80 .